تضاريس خريطة(*) الحقوق والواجبات

لا يوجد إنسان إلاّ ولديه خريطة أو حصر أو قائمة بواجباته العامة والخاصة أو الشخصية ، وربما بجدول داخلى لأولوية هذه الواجبات وأفضلياتها وأكثرها لزومًا أو أرخاها ترتيبًا ، وما يتعين التعجيل به منها وما يقبل الإرجاء لأمد قصير أو طويل . ولكن هل هذه التضاريس كلها اختيارات وتحديدات آدمية مصدرها فقط ما يقدره الشخص ويريده ويحدده ، أم أن تضاريس هذه الواجبات ليست عملًا بشريًا صرفًا ، وأن منها ما ينبع عن مصادر علوية أو دينية ، أو عن اعتبارات ودواع اجتماعية .. فالذى لا خلاف عليه أن قدرة البشر على تغيير خريطة الحقوق ومن ثم الواجبات ليست مطلقة ، بل لها حد إلهى يجب أن تقف عنده ، يصدق هذا على الجماعات مثلما يصدق على الأفراد .. بيد أن هذا ليس موضع اتفاق بين جميع الناس أو فى كل الأماكن أو الأزمان والعصور .. ولكن الذى لا خلاف عليه أيضا أن اجتهاد أهل كل زمان أو عصر ، أو فئة أو مكان ، واختلافهم المفترض والحاصل فى التفاصيل ، لا ينفى أن هذا الحد بمعناه العام قائم وموجود بصورة أو بأخرى فى كل زمان ومكان وظرف ـ كحقيقة كلية مستمرة بها تبقى حياة البشر ـ بصورة عامة موضوعية ـ داخل إطار من العدل والخير والحق فى تيار الزمن الذى هو فى حركة وصيرورة دائمة .

(*) المال ٥/ ٧/ ٢٠١٠ .

وهذا المبدأ لم يعد له قبول بل رفضته أوروبا فكريًّا فى تحولها التدريجى من منتصف القرن التاسع عشر إلى العلمانية أو اللا دينية والإنكار المتطرف للدين . على أن الملاحظ أن خفوت سلطات الدين فى أوروبا بعد أن ساد فيها فى العصر الوسيط بغير منازع ، قد تزامن مع ازدياد الثراء الذى أدت إليه قفزات التجارة الخارجية بعد الحرب الصليبية الأولى ، واتساع نفوذ المدن البحرية الإيطالية ، ونشاط أساطيلها وانتشار مراكز المال والأعمال التى أطلقت مع هذه التغيرات أشواق الناس للمكاسب والأموال ، والترف والكماليات ، وطفق ذلك يزداد مع الكشوف الجغرافية والانتشار إلى ثروات العالم الجديد .

تزامن مع هذه المتغيرات ، شيوع الترف ، والاندفاع فى الإقبال على الاقتناء ، والاستمتاع بالملذّات ، وعشق المغامرات ، والجرأة على كل شىء حتى انطبع فى ذهن ذوى اليسار ـ أى: الثروة ـ أنهم يمتلكون كل شىء ، ويستغنون بما يمتلكونه عن كل شىء ، وفشا الإعجاب بالذات ، وبات السؤال المطروح بشدة : هل هناك تلازم بين الغنى والثروة وبين ضعف التدين .

بعبارة أخرى ، هل تتداخل الثروة فى تضاريس خريطة الحقوق والواجبات .

لا جدال أن نوعية وجداول أولويّات الحقوق والواجبات تتأثر بالضرورة بأوضاع الغنى واليسار ، والفقر والحاجة .. فما يتطلع إليه الغنى ويرتاح إليه ويطلبه ويسعى إليه ، يختلف بالضرورة نوعاً وكيفًا وكمًّا عمّا يتمنّاه الفقير والمحتاج ويرجوه .. فارق كبير بين الحاجة وبين الاستغناء ، والحاجة والاستغناء كلاهما نسبى ، فى الكَم والنوع والكيف . وربما هذا هو الذى

أثار ويثير شبهة أثر الاستغناء الناجم عن الغنى فى صفحة وجدان أصحاب الثروات ، يكرس هذه الشبهة ما قد يجلبه الثراء من ثقة قد تصل إلى حد الغرور فى قدرة الإمكانيات على تجاوز كل شىء ، وعلى تحقيق كل ما يصبو إليه صاحب الثروة .

قد يكون هذا واردًا فى الماديات التى يكون الحصول عليها رهينًا بها فى قبضة الأغنياء من أموال ، وقد تتسع صورة هذه الماديات ونوالها حتى تكاد تستغرق معظم صفحة الصورة ، ومع ذلك يعرف الأغنياء قبل الفقراء أن هناك من المطالب والأمانى والحاجات ما يستعصى الحصول عليه بالأموال مهما كثرت .

المواهب والملكات ليست ولا يمكن أن تكون حصاد ثروة ، وكذلك الصحة والأمان النفسى ، وعقلاء الأغنياء يدركون هذه الحقيقة حتى وهم يسعون للخروج من ربقتها ، ولذلك لا يمكن التسليم بمقالة مطلقة إن الثروة والتدين نقيضان لا يجتمعان . فهناك أغنياء لم يلفتهم ثراؤهم عن الإيمان بالله وتصاريف ما يقدره ، ولا عن خريطة واجباتهم التى يسخِّرون فيها ثرواتهم لإعطاء الجانب الإنسانى حقه من الرعاية والكفالة .

وأمثال هؤلاء احتفظوا لذلك بالتوازن فى تضاريس خريطة حقوقهم وواجباتهم . بينما هناك فقر قد يورث الكفر أحيانا ، حتى قيل فى بعض الأمثال الدارجة إن الجوع كافر ؛ لأنه مع الحاجة الشديدة ووقعه المر الموجع الممض ـ يذهب بأمان النفس أشتاتا ، ويورثها شططًا قد يؤدى بها إلى الكفر أو ما يشبه الكفر ، ويؤثر بالضرورة على تضاريس خريطة الحقوق والواجبات .

ربما يبدو من ذلك حقيقة أن تضاريس هذه الخريطة ليست فى كل الأحوال صناعة بشرية . نعم تتدخل فيها إرادة وسلوك وأفعال وأعمال وخطط ومساعى البشر ، ولكن لها حدودًا لا يملكها البشر ومن المحال أن يمتلكوها . وهذه الحدود اللا بشرية هى التى تطامن من غلواء ملاك الثروة والممسكين بمقاليد السلطة والقوة ، وتدعو العقلاء إلى التخفيف من غرور ما يمتلكونه أو يقدرون أو يتصورون أنهم يقدرون عليه ، وتكفل لدى المجتمعات السوية جسورًا واجبة تخفف من ويلات الفقر وتوازن الحياة لتستقيم بلا فتن تعصف بالأخضر واليابس .

ليس من اليسير ، مع سطوة وارتفاع شأن المال ، تجاهل تأثيره على جدول القيم ، فالمال صار على رأس القيم فعلًا وواقعًا ، وأخذ المال يحتل معظم تفكير وأنشطة الناس ، ولوحظ تأثيره على هبوط الخامة البشرية ، وهذه الخامة الإنسانية هى قبلة الأديان ، لذلك لم يتوقف الصراع قط بين الأديان وبين المال على نفوس الناس وأرواحهم ، وأطل تساؤل يقول : هل يمكن أن تصبح الأشياء المادية أغلى وأثمن من الآدمى ذاته فى مجتمعات الثروة . إن اتصال الأديان بالمال اتصال انتفاع واستخدام ـ أمر حتمى تفرضه ضرورات كثيرة ، رأينا هذا ونراه فى مظاهر الفخامة التى تسللت إلى دور العبادة ذاتها ، وحتى صار بذل المال من أجل القربات الدينية عادة تلازم التعبير عن التدين ، بينما لم يعد متاحًا رد أهل الأديان إلى بساطة الحياة الأولى التى كان عليها الأوائل . وها هنا أكبر التحديات التى تواجه هذا العصر الذى صار نهبًا لانقسام لا يلتفت إلى أن واحة الرب تبارك وتعالى لا تفرق بين غنى وفقير ، أو بين قصر وكوخ ، وأن الجميع آتيه يوم القيامة فردًا !